تراجيديا العنف فى المجتمع المعاصر

دراسة فى رواية " الصخب والعنف " لوليم فوكنر

د. إلهام غالى

ما الذى يجعل من الضروري دراسة المدلول السوسيولوجي و النفسي لرواية "الصخب و العنف"[1] The Sound and the Fury (٧ اكتوبر من عام ١٩٢٩ ، نشراها جوناثان و هاريسون سميث في ذلك الوقت) لوليم فولكنر[2] William Faulkner (Cuthbert), original surname (until 1924) FALKNER (b. Sept. 25 septembre, 1897, New Albany, Miss., U.S. -d. July 6, 1962, near Oxford, Miss.) دراسة مستقلة بنفسها؟ الا يمثل تسجيل المعارف التجريبية الطموح الوحيد المشروع لعرض خطاب حول مسالة معرفة المدلول السوسيولوجي لرواية "الصخب و العنف" في عصر العولمة؟

لا تقتصر المعرفة الإجتماعية على بناء موضوع ، او إنتاجه إنتاجا ذاتيا. إنها انفتاح على الآفاق التي تفرض انواعا من التجربة غير مندرجة في مسلمات علم من العلوم -فالموضوع لا يقتصر على دراسة علم إجتماع العنف او على دراسة نظرية الصخب او نظرية التعدد في المنظور الإجتماعي- او في عرض منهجي، ولئن كان هذا الانفتاح لا يستتبع إحالة غير محدودة إلى ظواهر مختلفة باستمرار وتُخرج من الميدان الذي ننوي استكشافه، فإنه يفرض تحليل هذا الميدان في كل ما قد يخبئه ، وان نبقي حوله وفيه بحثا موضوعيا، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. ما ان يدعى النشاط المعرفي الإجتماعي بانه تم فعلاً حتي يتلقي مثل هذا الشرط . و وضع الظاهرة في موضعها يحدد الميادين و يثير الأسئلة التي تجعل المعرفة الإجتماعية ممكنة.

إن وجهة النظر المنهجية هذه ، المجملة هنا بصورة شكلية ، ينبغي ان تطبق على مسالة تحليل العنف الإجتماعي. و كل ما تسجله هذه العبارة - "تحليل

العنف الإجتماعي" - هو إنها تدل على مجموعة متنوعة من صور التحقيق والتنظير حول وقائع متنافرة ، فبنى العنف ، ومكوناته (البصرية ، التركيبية، الدلالية)، ينشيء استكشافات مختلفة ليس على مستوى محتوياتها التجريبية وحسب إنما ايضا على مستوى مشروعاتها، لأنها تتراوح بين النظرية العامة والتحليل الموضعي لعنف معين في سياق المشهد الأمريكي و العالمي. ونميل إلى القول إن مثل هذا التنوع هو اوضح دليل على ما يتمتع به عمل معرفي من قبول ما يدعي تحليله ، لو ان وحدة موضوعه المفروضة لا تبدو فى الوقت نفسه انها تنحل فيه.

من هنا لا اقدر بل و لا احب حتى لو استطعت ان الخص رواية "الصخب والعنف" لوليم فولكنر. و كل تلخيص إفساد و خيانة للعمل الفني. إذا نجح التلخيص فهو الدليل الحاسم على أن العمل هابط الي مستوي الحدوتة. وسنري كيف ان وليم فولكنر و بياربورديو معا اسهما كل في مجاله في تقويض الحدوتة الروائية و السوسيولوجية. العمل الفني يتابى عليك إذا اردت روايته من جديد او تلخيصه. ستجد نفسك في اغلب الأمر لا تتبع إلا الخيوط الرخيصة التي لا غني عن نسجها اولا ليتضح علي القماش نقشه البديع. غاية ما تبلغه من العمل الفني هو غاية ما يبلغه منك ، ان تعبر بكلامك انت عن اثره الباقي في نفسك. ليس في هذه المقدمة جديد. إنه كلام يتمتم به النقاد كاصحاب الأوراد على مسابحهم. مرة اخري ، لا تلخيص للعمل الفني فما بالك بقصة "الصخب والعنف" و هي تعتمد تنويع المنظور لتصوير المجتمع الأمريكي المعاصر بنفضاته وخلجاته. لا مفر إذن من ان اكتب زاعمة انك قرات القصة، فإن كنت قرات فقد

تم المراد و إلا فإن حضنك هذا البحث علي قراءة القصة فهو غنم لك يفوق و لا ريب غنمك من خوض هذه المحاولة البحثية في النقد السوسيولوجي للقصة الأمريكية.

ففي ظل صعود العنف في ارجاء العالم و في إطار محاولات الولايات المتحدة الأمريكية إحكام قبضتها على العالم، ربما كان من المجدي ان نحاول هذه المحاولة في قراءة سوسيولوجية لرواية "الصخب و العنف" للكاتب الأمريكي و الروائي العالمي الفائز بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٤٩ ، فتتوافق تقنية الكتابة مع تقنية علم الإجتماع في استقصاء "وجهات النظر" لبيار بورديو، العالم الإجتماعي الفرنسي المعاصر الراحل، من جهة، و تتوافق مع تصاعد العنف والهيمنة الأمريكية، من جهة ثانية، و تتوافق مع مقاربة فولكنر للعلاقة بين الجنوب و الشمال، بين الريف و الحضر، من جهة ثالثة. فقبل ان يبدا في كتابة رواية "الصخب و العنف" كتب فولكنر عن نفسه يقول ، "الآن اقدر ان اكتب". وربما كان يقصد ، "الآن اقدر ان انسي النظارة و ان اعيش في خيالي."

و الرواية عبارة عن وصف من منظور اربع وجهات نظر مختلفة لحكاية واحدة. و تنبع اهمية الرواية، في البحث السوسيولوجي المعاصر، من جوانب عدة ، من تقنيتها و تحليلها النفسي، من جهة كونها وصفا لإنهيار اسرة كمبسون الأرستقراطية، و ضمنيا، من جهة كونها وصفا لإنهيار النظام الإجتماعي الأمريكي السائد منذ مطلع القرن العشرين، و يتوافق تعدد وجهات النظر في الوصف مع منهج بيار بورديو في علم إجتماع الأدب، تتوافق الرواية، من جهة المضمون، مع رفض فولكنر الروائي و بورديو العالم للهيمنة، إن ظلال رواية

(الصخب والعنف) تظهر في رواية الكاتب العراقي المعاصر فؤاد التكرلي "الرجع البعيد"، من جهة اخيرة.

بالإمكان النظر إلى رواية "الرجع البعيد" من ثلاث زوايا مختلفة. فهي اوليا، القصة الحزينة (لمنيرة) التى عاشت الماساة و كافحت بشجاعة للتغلب عليها وتجاوزها والبدء بعدها بحياة جديدة فى العالم العدوائي فى الكثير من عناصره الذي تعيش فيه والرواية من زاوية ثانية قصة مجموعة من الأفراد اختارهم الكاتب-يمثلون فى دلالة شخصياتهم الشعب او المجتمع العراقي فى فترة بعينها من تاريخه وهى اخيرا ماساة الإنسان بشكل عام فى الحياة وازمته معها ومع الزمن والرواية.

مع ان بنية "الرجع البعيد" وتقنيتها يختلفان عن بناء "الصخب والعنف" وتقنيتها، فقد قسم الكاتب العراقي روايته إلى فصول فصلها على بعض شخصياته التى هي افراد عائلة واحدة مقدما ذلك بصيغتي المتكلم والغائب. وهذه الحقائق هي إلى حد يعين ملامح تبرز فى رواية الكاتب الأمريكي الذي قسم (الصخب والعنف) إلى اربعة اقسام وزع الثلاثة الأولى منها على ثلاثة اخوة من عائلة (كمبسون) معتمدا فى تقديمها ضمير المتكلم.

مصدر رواية وليام فولكنر

يعتمد فوكنر في روايته المونولوج الداخلى و منهج جيمس جويس في الكتابة. و تمثل القصة فى خطوطها العريضة وتمثل ماساة " مكبث " لوليم شكسبير. وكل شخص من اشخاصها الثلاثة المهمين (وهم اخوة) يعبر عن احدى

الشخصيات اللاواعية التى أسماها سيجموند فرويد الهو ، الأنا ، والأنا الأعلى ، والأخت وابنتها تمثلان طاقة الجنس.

يشتق عنوان رواية "الصخب و العنف" و جو الرواية من كلام شخصية مسرحية وليم شكسبير الرئيسية و التي تحمل عنوان العمل الا و هي شخصية مكبث. في الفصل الخامس، المشهد الخامس، و بعد موت زوجته الملكة، و حين بدا في إدراك الوضع الجديد في حياته، يناجي الملك مكبث نفسه قائلاً ،

"غـــــــدا، و غـــــــدا، و غـــــــدا،
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوما اثر يوم،
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب،
وكل آماسنا قد انارت للحمقى المساكين
الطريق إلى الموت و التراب. الا انطفيء ياشمعة وجيزة!
ما الحياة الا ظل يمشي، ممثل مسكين
يتبختر و يستشيط ساعته علي المسرح،
ثم لا يسمعه احد ؛ إنها حكاية
يحكيها معتوه، ملؤها الصخب و العنف، و لا تعني شيء." [٢]

والمرجح ان مسرحيه مكبث هى آخر التراجيديات الأربع الكبرى التى الفها شكسبير ، وانها تسبق مسرحيه انطونيو وكليوباترا ففي مسرحيه مكبث يبدو اسلوب شكسبير وقد استكمل طابعه المتميز. يبدو ان مكبث تحيل من بعض النواحى الي مسرحيه هملت. والشر - مع انه يبدى فى مسرحيه مكبث نشاطاً جباراً شيء آخر يخالف وحشيه اياجو او جونريل الجليدية او الحجرية . وانه كما فى مسرحيه هملت طريد تانيب الضمير .

لم يعد شكسبير يقصر مهمة التنفيذ على عوامل بشريه بحتة بل نجد نذر الشر تعود لتملاء الفضاء ، والأشباح تخرج من قبورها ، ونوراً غير ارضى بومض وميضا يرفرف حول راس الشخص المقضى عليه ، واهم خصائص مكبث سحر القوى الخارقة وعدم وجود منظر عذاب بالغ ، وعدم وجود شخصيات تفزع وتثير الاشمئزاز وتنفر مع تجردها من مظهر الجلال.

والقارئ الذى ينظر الى إياجو على مضض منه يحدق فى وجه الليدى مكبث فى خشيه ورهبه ، لأنها - وان تكن مخيفة - تتسم مع ذلك بسمه الجلال ، والتراجيدية كلها سامية و جليلة.

وابعاد الشخصيات الرئيسية في مكبث ومعدل سرعة خطوات التنفيذ والتاثير الخارق ، والأسلوب ، وتنظيم الشعر ، متغيرة جميعها.

وتتميز لغة اجزاء كثيرة من مسرحيه مكبث بتركيز وخصب وجهد بل عنف ، كما ان الجمال المتسق بل السلاسة، قد كادا يختفيان والشخصيات الرئيسية تبدو وكأنها تبلغ احيانا مبلغ الخلائق الخارقة.

اما فى هذه التراجيديا فإن التنفيذ يخرج فيها الى حيز الوجود الوحشى وسط اصوات عاصفة رعدية واصداء معركة على بعد . ثم يسرع الخطى عبر سبعه مناظر مقتضية جداً من القلق المتزايد ، الى موقف حرج مروع يتم الوصول اليه - فى حال اغتيال دنكان - فى مطلع الفصل الثانى وبعد ان يتريث قليلاً ويغير شكله يعود فيستحث السير فى سرعه التنفيذ الخارجى يظل التاثير ذاته بشكل آخر اذ تعرض علينا نفس عذبها كرب لا يفسح المجال للحظة هدوء . او